﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء: 20 - 22]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من امتنانِ أهلِ الباطلِ إلى الرَّدِّ عليهم

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ ما اشتمل عليه كلامُ فرعون لموسى عليه السلام من السؤال المليء بالامتنان: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء: 18]، وألحقَهُ بالتُّهمة الخطيرة: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: 19]؛ ناسب أن يذكرَ جواب موسى عليه السلام الصَّريح الواضح: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، ثم كرَّ على منَّته التي امتنَّ بها فرعون على موسى عليه السلام وهي في حقيقتها إذلالٌ لبني إسرائيل: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَلْتُهَآ﴾: أصلُ (فعل) يدُلُّ على إحداثِ شَيءٍ مِنْ عَمَلٍ وغَيْرِهِ، مِنْ ذلكَ: فَعَلْتُ كذا أَفْعَلُهُ فَعْلًا[1]، وفَعل: اسم من فِعل الشَّيء، فَعل يَفْعَلُ فَعْلاً وفِعْلاً، فالفَعْلُ: المصدر، والفِعْل: الاسم، والفَعالُ اسمٌ للفِعل الحسَن، مثل الجود والكرم ونحوه[2]، والفِعل: أَخَصُّ من العمَل، أَو كِنايةٌ عَن كلِّ عمَلٍ، مُتَعَدٍّ أَو غيرِ مُتعَدٍّ، وهو يدلُّ على الزَّمان بصيغته، وعلى المكان بمعناه، والفِعلُ عِنْد النُّحاة: ما دَلَّ على معنى في نفسِه مُقترِنٍ بأحدِ الأزمنةِ الثَّلاثة[3]، والجمع: فِعال، وأمّا الفعل في الآية فمعناه: التَّأثير من جهة مُؤثِّر، والمقصود

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فعل).
(2) الخليل، العين: (فعل).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (فعل).

به: الاعترافُ بالفَعْلَةِ من موسى جزاءً لتهْديدِ فرعون له على طريقة القَول بالموجَبِ، أي لا أتهيَّبُ ما أَردتَ[1].

2) ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: أصلُ (ضل) يدلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذهابه في غير حقِّه[2]، والضَّلال: الغيبوبةُ والخَفاءُ والسَّترُ، يُقالُ: ضلَّ الكافِرُ: غابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ النّاسي، إذا غابَ عَنهُ حِفظُه[3]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريق[4]، ورجلٌ مُضَلّل، أي: لا يوفَّق لخيرٍ[5]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: سُلوكُ طريقٍ غيرِ مُوَصِّلةٍ للمقصودِ خطأً، والمُرادُ به هنا: إمّا الفساد، أو الجهالة[6].

3) ﴿فَفَرَرْتُ﴾: أصلُ الفِرارِ الانكِشافُ، يُقالُ فَرَّ يَفِرُّ، والمَفَرُّ المصدرُ، والمَفَرُّ: الموضِعُ يُفَرُّ إليه، والفَرُّ: القومُ الفارّونَ، يُقالُ فَرٌّ جمعُ فارٍّ، كما يُقالُ صَحْبٌ جَمْعُ صاحِبٍ، وشَرْبٌ جَمْعُ شارِبٍ[7]، الفِرار: الرَّوَغانُ والهَرَبُ، وهو ابتعادٌ عمّا يواجهُ بخفة وإسراع، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب هو من الفِرار: المباعدة بخفَّة، وسرعة[8]، وهو على خمسةِ أوجهٍ: التوبة، والهرب، والكراهة، وترك التعرج، والتباعد[9]، والمقصود في الآية الهروب بإسراعٍ وخِفَّة.

4) ﴿فَوَهَبَ﴾: الهِبَةُ أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض، يُقالُ: وهَبْتُهُ هِبَةً ومَوهِبَةً ومَوْهِبًا[10]، وتَقول: وهَب اللّه له الشَّيء، فهو يَهَب هِبَةً، وتواهَبَه النّاسُ بَينهم، واللّه الوهّاب الواهِب، وكلُّ ما وُهِبَ لك من ولدٍ وغيرِه فهو مَوْهوبٌ[11]، والمُراد به في الآية: إعطاءُ شيءٍ بلا مُقابلٍ وعوضٍ، وهو مجازٌ في التَّفضُّل والإكرام.

5) ﴿حُكْمًا﴾: أصلُ (حكم) يدلُّ على المَنْعِ، وأَوَّلُ ذلكَ الحُكْمُ، وهو المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 114.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلّ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلّ).
(5) الخليل، العين: (ضلّ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتحرير: 19/ 114.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فر).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (فرر).
(9) العسكري، الوجوه والنظائر: 372 مختصَرًا.
(10) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (وهب).
(11) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 372 مختصَرًا.

وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ مِن الفَسادِ فقد حَكَمْتَهُ وأَحْكَمْتَهُ[1]، والحُكمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصْلُ، تَقولُ: حَكَمْتُ بَيْنَهُما إذا قَضَيْتُ، ويأْتي بِمَعْنى: الشَّيْءِ الحَسَنِ المُتْقَنِ، والجَمْعُ: أَحْكامٌ، والإحْكامُ: الحُسْنُ والإتْقانُ، يُقال: أَحْكَمْتُ صُنْعَ الشَّيءِ، أي: أَتْقَنْتُهُ، والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمورِ[2]، والحِكْمَةُ: إصابةُ الحقِّ بالعِلْمِ والعَقْلِ، فالحكمة من الله تعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غاية الإحكام، ومن الإنسان: معرفةُ الموجودات وفِعل الخيرات[3]؛ وسُمّيت بذلكَ لأَنَّها تَمْنَعُ صاحِبَها مِنَ الوُقوعِ في الغَلَطِ والضَّلالِ، والمقصودُ بالحُكْمِ في الآية: الحِكْمَةُ والعِلْمُ، وأرادَ بها النُّبوَّةَ، وهي الدَّرجةُ الأولى حين كلَّمه ربُّه تعالى[4].

6) ﴿تَمُنُّهَا﴾: أصلُ المَنِّ القَطْعُ، يُقالُ: منه يَمنه مَنًّا أَيْ قطعه، ويُطلَق المَنُّ على تَعْدادِ الصَّنائِعِ كأَنْ يقول: أعطيتُك كذا وفعَلتُ بك كذا؛ لأنَّ المنَّان يقطعُ الخيرَ بكلامه[5]، والمَنُّ أيضًا: الجودُ والإحسانُ إلى الآخرينَ، يُقالُ: مَنَّ عليه يَمُنُّ مَنًّا إذا جادَ عليه وأحسَنَ إليه، والمِنَّةُ: النِّعمَةُ العظيمةُ، والمنَّانُ: المُنعِمُ[6]، والمُرادُ بالمنِّ في الآيةِ: تذكيرُ المُنعِمِ المُنعَمَ عليه بإنعامه[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أجاب موسى ﷺ على تُهْمَتَي فرعونَ له بالإقرار المؤدّي إلى نفي إحداهما، وقلب القضية عليه في الأخرى، فقال موسى مجيبًا لفرعون: فعلتُ ما ذكرتَ من قَتْلِ القِبْطي، لكنَّه قتلٌ وقع مني خطأً، فلا مؤاخذة عليَّ فيه؛ إذ كان قبل أن يوحي اللهُ إليَّ، ويبعثني رسولًا،

ليس للطاغية على مظلوميه مِنَّةٌ إنْ ضمَّنَ طغيانَهُ بعض الإحسان إليهم

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (حكم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 115.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (منّ، منن).
(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (منّ، منن)، والمناوي، التوقيف، ص: 317.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 299.

فخرجت من بينكم فارًّا إلى مدين؛ لمّا خفت أن تقتلوني بما فعلتُ من غير عَمْد، فوهب لي ربي تفضُّلًا منه النُّبوَّة والعلم، وجعلني من المرسلين، وألقمه جوابَ الثانيةِ بقوله: أَو تلك التربيةُ في بيتك تَعُدُّها نعمةً منك عليَّ، وقد جعلتَ بني إسرائيل عبيدًا تُذَبِّح أبناءهم، وتستبقي نساءهم للخدمة والامتهان؟[1]

وترشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى أنَّ اعتراضَ فرعونَ على موسى، اعتراضُ جاهلٍ أو متجاهلٍ، فإنَّه جعل المانع من كونه رسولًا أن جرى منه القَتْلُ، فبيَّن له موسى عليه السلام أنَّ قَتْلَهُ كان على وجه الخطأ وغير العمد، الذي لم يقصد نَفْسَ القَتْل، وترشدُ إلى جواز التذكير بالإحسان لمن أنكره، ولكن لا على سبيل الامتنان، فإنَّه محبطٌ للعمل، وإلى جواز إطلاق لفظ الضَّلال على الجهل، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾ [الضحى: 7]، وكما قال موسى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، أي: الجاهلين قبل أن يعلمني ربي، وإلى مشروعيَّةِ الفِرار من خوف الظُّلم؛ إذا لم يكن في البلد قضاء عادل، وإلّا لما جاز الهربُ من وجه العدالة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الجملة عن سابقها:

فُصِلَتْ جملة: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، عمّا قبلها للاستئناف البياني - شبه كمال الاتِّصال - ؛ لأنَّ الثانية بمنزلة جواب عن سؤال تثيره السابقة، تقديره: وماذا كان ردُّ موسى عليه السلام ودفاعُه عن نفسه تُهمةَ ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: 19] بعد السؤال المراوغ: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: 18]؟ فكان الجواب ما جاء في الآية.

رُبَّ ضارَّةٍ للعبد نافعةٌ له

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 129، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 138.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 590، والجزائري، أيسر التفاسير: 3/ 643.

بلاغةُ الرَّدِّ في جواب موسى:

جـوابُ المتمكِّن يعكس القـوَّةَ النفسيَّة ورباطة الجأش

ردَّ موسى ﷺ بقوله: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ على تهمة فرعون، فأجاب عن القتلِ بما لا شيء أبلغُ منه في الجواب، وقد "كانت رباطةُ جأشِ موسى ﷺ وتوكُّله على ربِّه تعالى باعثةً له على الاعتراف بالفِعلة، وذكرِ ما نشأ عنها من خيرٍ له؛ ليدُلَّ على أنَّه حمِد أثرَها، وإن كان قد اقترفها غير مقدِّرٍ ما جرَّتْهُ إليه مِن خير، فابتدأ بالإقرار بفعلته؛ ليَعلم فرعون أنَّهُ لم يَجِد لِكلامه مدخل تأثيرٍ في نفس موسى ﷺ"[1].

فنُّ اللَّفِّ والنَّشر في تهمتَي فرعون:

مـراعـاةُ فـقـهِ الأولويّات مهيعُ الحكماء

بين تهمتَي فرعون لموسى ﷺ ودفاعِه عن نفسه لَفٌّ ونَشْرٌ غير مرتَّب: فالتُّهمة الأولى مضمَّنة في الاستفهام التقريري التوبيخي: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء: 18]، وجاء دفاعه عن نفسه فيها مؤخَّرًا: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

والتُّهمة الثانية: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: 19]، وجاء دفاعه عن نفسه فيها مقدَّمًا مُلحقًا بها مباشرة: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ونكتة ذلك أنَّه بدأ بردِّ ما ينبني عليه اتِّهام يؤدّي إلى العقوبة الكبرى، ثم كرَّ بردِّ المنَّة القبيحة، ففيه مراعاةٌ لفقه الأولويات.

فائدةُ تقديمِ فِعل القتلِ على حرف الجزاء:

بـيـانُ عـدمِ خـشـيةِ مـوسى والاسترسال في ذكـر نـعـم الله عليه

قُدِّمَ الإقرارُ بوقوع القتل في قوله تعالى: ﴿فَعَلْتُهَآ﴾ على حرف الجواب ﴿إِذًا﴾ مبادرةً بالإقرار؛ ليكون كنايةً عن عدم خشيته من هذا الإقرار، وبهذا يظهر وجهُ الاسترسالِ في الجواب بقوله:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 113.

﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: فكان فراري قد عقبَهُ أنَّ الله تعالى أنعم عليَّ، فأصلح حالي، وعلَّمني، وهداني، وأرسلني، فليس ذلك من موسى ﷺ مجرَّد إطنابٍ، بل لأنَّه يفيد معنَى أنَّ الإنسان ابنُ يومهِ لا ابنُ أمسه، والأحوال بأواخِرها، فلا عجب فيما قصدتُ، فإنَّ الله تعالى أعلم حيث يجعل رسالاته[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردة فعل الاتِّهام:

تفنيدُ التُّهمةِ بألفاظ الاتِّهام

آثرَ النَّظمُ الكريم إيثار مفردة ﴿فَعَلْتُهَآ﴾؛ لتكونَ مطابَقةً لتهمة اللَّعين: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: 19]؛ إذ ردَّدَها ثلاثَ مرّات، يُلِحُّ على كونها جريرةً توجب العقوبةَ، فاقتضى هدمُ ذنبِها عنه ﷺ استئصالَها بتكرار لفظها ذاتِه؛ لإشعار فرعونَ بعدم شعور موسى ﷺ بأيِّ جريرة، وأنَّه يواجهها، ولا يتهرَّب منها.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي في الفعل:

انتفاءُ العَمْدِ يَمُدُّ النَّفسَ بالثِّقة في البراءة

جاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي ﴿فَعَلْتُهَآ﴾ مطابقةً للواقع من جهة؛ إذ قَتْلُ القبطي كان قد مضى منذ أكثر من عشر سنوات، مع ما فيه من مطابَقةٍ لصيغة التُّهمة (فعَلتَ)، فقال: (فعلتُ)، وفي ذلك أيضًا إبرازُ الثِّقة في النَّفس وعدم إظهار اكتراث بتهمة لا تبِعة فيها؛ لبراءته من ذنبها بعدم القصد وانتفاء العَمْد.

براعةُ إضمارِ لفظِ التُّهمة:

إضمارُ لفظ التُّهمة كياسةٌ وتفويتٌ لمقصد الاتِّهام

ضمير المفعول (ها) في قول موسى ﷺ: ﴿فَعَلْتُهَآ﴾ يرجع إلى التُّهمة التي عبَّر عنها فرعونُ بالموصول وصلتِه: ﴿ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾، وهي قتل القبطي خطأً بوكْزةٍ ليس مِن شأنها أن تقتل، لكنَّها صادفت قدَر الرَّجل المحتوم.

وكان من كياسة موسى ﷺ طيُّها في الضمير، وعدَمُ تكرارها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 113 - 114.

بلفظها؛ لأنَّها اجْتُلِبَتْ من قِبَل فرعون في هذه اللَّحظة أصلًا للمراوغة، والهروب مِن مطلب موسى وهارون ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء: 17].

تلوينُ الجواب بفنِّ القول بالمُوجِب:

أقــوى الحجج ما صيغت من أفواه المبطلين

﴿إِذًا﴾ "جوابٌ وجزاءٌ معًا، وهذا الكلامُ وقع جوابًا لِفرعون، وجزاءً له؛ لأنَّ قول فرعون ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ [الشعراء: 19] معناه أنَّك جازيت نعمتي بما فعلتَ، فقال له موسى: نعم فعلتُها مُجازيًا لك - تسليمًا لقوله - لأنَّ نعمته كانت جديرة بأن تُجازَى بِنحو ذلك الجزاء"[1].

و"معنى الجزاء في قوله ﷺ: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أنَّ قول فرعون: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾ [الشعراء: 19] قُصِد به إفحامُ موسى وتهديده، فجعل موسى الاعترافَ بالفَعلة جزاءً لذلك التَّهديد، على طريقة القول بالموجِب: الذي هو نوعٌ من أنواع الاعتراض على الدَّليل يُقصد به تسليم ما جعله المستدلُّ موجِبًا لدليله، على وجهٍ لا يَلْزمُ منه تسليم الحكم المتنازع فيه، أي: لا أتهيَّب ما أردتَ"[2].

نوعُ الواوِ ومعناها في الآية:

لا احتجاجَ على ما يكون مشتركًا بـين أجـنـاسِ الناس

(الواو) في جملة: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ واو الحال، أي: فعلتها حالةَ كوني غيرَ عامدٍ لِفعلها، ولا داريًا لخطرها، وإنَّما وقعت مني خطأً، والخطأُ من طبيعة الجبلَّة البشرية، فلا حجَّة عليَّ فيما يشترك به أجناسُ الناس.

دلالةُ تقديمِ المسند إليه على المسند:

بـيـانُ الحقائق بصدقٍ وسكينةٍ يُعين على الدِّفاعِ عن النَّفس

قُدِّم المسند إليه - وهو ضميرُ التكلُّم ﴿وَأَنَا۠﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ توكيدًا من موسى ﷺ لنسبةِ فعل القَتْل إليه؛

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 2/ 557.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 113، ويُنظر: الرازي، المحصول: 5/ 269، وابن قدامة، روضة الناظر: 2/ 328، والآمدي، الإحكام في أصول الأحكام: 4/ 111.

لنَفْي أنْ يكون قد قَتل القبطيَّ عمدًا، فموقعُ الضَّمير هنا موقع حسَنٌ، حيث إنَّ الإقناعَ بالبراءة يكمُن في إظهار الشَّجاعة في تحمُّل المسؤولية، والسكينة في الدِّفاع بالحقِّ، والإتيان على القضية من جذورها بالهدم، وعدم المواربة المُؤذنة بالتورُّط في الجريمة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالحال جملةً لا مفردًا:

الحالُ الجملةُ تَـنـشُـر مـن الـدلالات مـا لا تُتيحه الحالُ المفردة

قد يتبادر أنَّ الإيجاز كان يقتضي إيثارَ الحال المفردة، فيقال في غير القرآن الكريم: (قال فعلتها إذًا ضالًّا، أو مخطئًا)، أو غيرهما من الأحوال المفردة، لكنَّه ﷻ آثر في النَّظم الكريم التَّعبيرَ بجملة الحال ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، ولم يقل: (ضالًّا)؛ لإتاحة الجملةِ خصوصياتٍ تركيبيةً تحتَها من الدلالات الفاعلة ما لا تُتيحه الحال المفردة.

فممّا أتاحته جملةُ الحال ذِكرُ ضمير التَّكلُّم، وتقديمُه، والتقييدُ بالجار ﴿مِنَ﴾، وما يُلحُّ عليه مِن تبعيضٍ له دلالتُه، والمجرور ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ المُبعِد وصمَهُ ﷻ بالضَّلال المباشر.

نوعُ ﴿مِنَ﴾ ودلالتها:

الضَّلالُ بِمعناه الـلـغـويِّ وارِدٌ على كلِّ البشر

حرف ﴿مِنَ﴾ في جملة الحال ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ للتَّبعيض، وتُلمَح إلى وُرود الضلال بِمعناه اللُّغوي على أيِّ بشريٍّ، فمَن مِن البشر لا يُخطِئ؟ وهذا التبعيضُ يومئ إلى جواز وقوعِ الخطأ، وتتآزر مع بقيَّة عناصر جملة الحال في بيان العذر، والمقام هنا مقامُ مجاذبة بين الحقِّ والباطل، وأبلغهما بيانًا يَستميل إليه جمهورُ الحاضرين، ويَكْسِر حُجَّة الخصم، فيُضعف موقفه، وهذا ما تُراعيه ﴿مِنَ﴾ في القيد ﴿مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردة الضَّلال:

دفْـعُ الـتُّـهـمـةِ بالكفر والخطيئة وكلاهما ممّا يُنزِّهُ عنه رسل الله

من دقَّةِ البيان القرآني إيثارُه التَّعبيرَ بـ (الضلال) دون (الخطأ)، برغم أنَّه يؤول إليه عند التَّحقيق؛ وذلك لِما في الخطيئة مَن شوب الذَّنْب واحتمال الإثم، أمّا (الضلال) بمعناه المقصود في الآية الكريمة؛ فمَحْضُ اختلال في التَّصرُّف، يخلو من العَمدِ، وذلك

معناه قبل تخصيص مصطلح (الضلال) في الشَّرع بـ (الضلال) العقدي، كما أنَّه آثره على لفظ (الكفر)، وبهذا رفضَ موسى عليه السلام أمرين: التُّهمة بالخطأ، والتُّهمة بالكفر الذي جاء على لسان فرعونَ، و"برَّأ ساحته بأنْ وضع ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ موضع (الكافرين)، ورَبَأَ بِمَحَلِّ مَن رُشِّحَ للنُّبوَّة عن تلك الصفة"[1].

دلالةُ التَّعريفِ في لفظِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾:

الضَّلالُ بمعناهُ اللُّغويِّ يخلو من الإثم

المقصودُ من لفظ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾: الجاهلين، والمعنى: من الذاهلين عمّا يؤول إليه الوكْز؛ لأنَّه أرادَ به التَّأديب[2]، والتعريفُ في ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ تعريف الجنس، القائل بجوازه على الإنسان - أيِّ إنسان - لأنَّه الضَّلالُ اللُّغوي السلوكيُّ، لا العقديُّ المتعلِّق بالكفر وإنكار وحدانيَّة ألوهيَّة الله تعالى وربوبيته.

"وجعل موسى نفسَه من الضالين إن كان مرادُ كلامِه الذي حكتِ الآية معناه إلى العربية المعنى المشهورَ للضلال في العربية، وهو ضلال الفساد، فيكون مرادُه أنَّ سَوْرَةَ الغضبِ أغفلتْهُ عن مراعاة حُرمة النفس، وإن لم تكن يومئذٍ شريعةٌ، فإنَّ حفظَ النُّفوس ممّا اتَّفقت عليه شرائعُ البشر، وتوارثوه في الفِتَر، ويؤيِّد هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: 16]، وإن كان مرادُه معنى ضلال الطريق، أي: كنتُ يومئذٍ على غير معرفة بالحقِّ؛ لعدم وجود شريعة، وهو معنى الجهالةِ، كقولِه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى: 7]، فالأمرُ ظاهر"[3].

نوعُ الفاء ومعناها:

(الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ تفريعيَّةٌ عاطفةٌ؛ إذ وقعَ الخوفُ بعد القتلِ غيرِ المقصود، فالفرار.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 306.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 4/ 135.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 113.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردة الفرار:

الفرارُ إنَّما يكونُ بعد فزعٍ وخوفٍ

استعمل النَّظمُ مفردةَ الفرار في قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾، والمعنى: (خرجتُ من بينكم إلى مدين)، كما جاء في سورة القصص: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: 21][1]، وفي إيثار مفردة (الفرار) دونَ لفظ (الهروب) لأنّه كان فرارًا مشروعًا من الظُّلم الذي سيناله من تآمر قوم فرعونَ على قتله وتشاورهم في ذلك؛ أخْذًا بنصيحة الرجل الذي جاء من آخر المدينة يسعى، إضافة إلى ما في مادة الفرار مِن الكناية عن قسوة فرعون وشدَّة بطشه.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي في الفرار:

الأخْذُ بالأسبابِ المُمكنة نجاةٌ من المهالك

التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قوله: ﴿فَفَرَرْتُ﴾ إشارةٌ إلى سرعة الفرار، وأنَّه كان فيه الأخذ بأسباب النَّجاة، من الغَشْم في ردود فعل فرعون، كما أنَّ في صيغة الماضي (فررتُ) مطابقةً لِتَسلسُل الأحداث؛ إذ كان ذلك الفرارُ من مصر إلى مدين قبل عشر سنوات من قَتْل القبطي.

نوعُ (مِن) ودلالتها:

تحتمل (مـن) السَّببيَّةَ والابتدائيَّة

تحتمل أن تكون (مِن) في قيد قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ سببيَّة، أي: فررْتُ بِسبب خوفي من ظلمكم، وبِدافع علمي طغيانَكم، وانعدام العدالة في حُكمكم، وتحتمل أن تكون ابتدائيَّة، "أي: فرارًا مبتدِئًا منكم"[2]، وعلى الاحتمالين يوجِّه عليه السلام المخاطَبين إلى سبب الفرار، وأنَّه فرارٌ من ظلمٍ لا هروب من ذنبٍ.

فتقييد الفِرار بالجار والمجرور ﴿مِنكُمْ﴾ يُبَرِّئ ساحة موسى عليه السلام من تبِعات التُّهمة، ويُكشف عن أنَّ الفرار لم يكن فرارًا وهروبًا خوفًا من عقوبةٍ عادلة ومحاكمة نزيهة، بل كان مِن تآمرٍ ظالم، وبطشٍ أعمى وتسلُّطٍ غشوم: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 95.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 115.

معنى ﴿لَمَّا﴾ ودلالتها:

﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ هي الحينيَّة التي تُرتِّب الجزاءَ على الشرط بِلا مهلة، كما يقول الفارسي، أو هي رابطة كما يقول سيبويه[1]، وقد تُستفاد المُهلة من (الواو) حين تَدخل على ﴿لَمَّا﴾، أمّا هنا؛ فالداخلة عليها الفاء على تقدير: (فلما خفتكم فررت)، والفاء تتناغم هنا مع دلالة الحرف ﴿لَمَّا﴾، الذي يترجم السرعة الخاطفة، ويُرتِّب الجزاء ﴿فَفَرَرْتُ﴾ على الشرط ﴿خِفْتُكُمْ﴾، ويَزيدهما اتِّصالًا، وتتآزر ﴿لَمَّا﴾ مع (الفاء) في بيان غشم فرعون وملَئِهِ وشدة ظلمهم.

باحتمال وقوع الخوفِ تحقَّق الفرارُ

نكتةُ تقديمِ الفِرار على الخَوْف:

عند النظر في سياق الآية الكريمة نجد أنَّ الخوفَ من آلِ فرعونَ هو المتحقَّق أوَّلًا، فلمّا خاف موسى ﷺ؛ فرَّ منهم، لكنَّ النَّظم قدَّم الفرار على الخوف في قوله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾، الذي دخلت عليه ﴿لَمَّا﴾ المؤخَّرة الرابطة للمعنى، والتقدير: (فعلتها خطأً)، فلمّا خفتكم؛ فررت منكم، وذلك أنَّ الفرار مترتِّبٌ على الخوف، لكن وقع في الجملة تقديم وتأخير؛ للتنويه بِخطورة المقدَّم، وهو الفِرار الدال - بطريق اللزوم الكنائي - على بشاعة انتقام فرعون ممَّن يغضب عليه، ولأنَّ الفرارَ مأخوذ عليه ﷺ وقد لبث فيهم من عمره سنين، فكان تقديمُهُ ضروريًا في هذا المقام المتوتر؛ لبيان عذره فيه، فهو من باب تقديم النَّتيجة على العلَّة، والفعل على سببه.

تقديمُ النَّتيجةِ على العلَّةِ المُفضيةِ إليها

براعةُ جمع الضمائر وإفرادها في سياقٍ واحد:

من دقَّة النَّظم القرآني الكريم هنا جمْعُ الضَّميرِ المجرور في ﴿مِنكُمْ﴾، والمنصوب في ﴿خِفْتُكُمْ﴾ مع إفراد ضمير الفاعل في ﴿تَمُنُّهَا﴾، و﴿عَبَّدتَّ﴾، وذلك مراعاة لدقيق المعاني؛ إذ إنَّ "الخوفَ

الخوفُ من بطش الملأِ جميعًا، والامتنان صدر عن فرعون وحدَهُ

(1) محيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 63.

والفرار لم يكونا منه - أي: من فرعون - وحدَهُ، ولكن منه ومِن مَلَئِه المؤتمِرين بِقتله، بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾، وأمّا الامتنان؛ فمِنْهُ وحدَهُ، وكذلك التَّعبيد"[1].

بلاغةُ التعبيرِ بمفردة الخوف:

لا يُـلامُ المؤمنُ عـلى خـوفـه الـفِـطـري على حياته وسلامته

جاء التَّعبيرُ بمفردة الخوفِ دونَ الخشية؛ لبيان أنَّ خوفَهُ كان فطريًّا، وفي إيثار النَّظمِ الكريم التَّعبيرَ بالخوفِ إشارةٌ إلى جواز حصوله للمؤمن مِن الخلق، وهو الخوف المتعلِّق بمجرَّد الأذى، لا الخوف المتعلق بإنهاء الأجل أو فوات الرزق.

و"يجوز حملُهُ على ظاهره، وأنَّه خاف منهم على نفسِه، والفرار - عند عدم الطاقة - غيرُ مذموم عند كلِّ أحدٍ، ويقال: فررتُ منكم لمّا خفت أن تنزل بكم عقوبة من اللّه تعالى؛ لِشؤم شِركِكم، أو من قول فرعون: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: 38]"[2]، فهو على هذا المعنى الثاني واردٌ على ربط الخوف بغضب اللّه تعالى، وليس منهم هم.

نوعُ الفاء في فعل الوَهب ومعناها:

الـفـرارُ من الـطُّـغـاة من أسباب الفرج

الفاء في جملة ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ عاطفةٌ، عطفت جملتها على قوله ﷺ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾، وفرَّعتها عليها، أي: إنَّ الفرار من طغيان الطُّغاة بمنزلة السَّبب الأكيد لِنزول الفرج، وأنَّه لو استكان للظالمين وهادنهم؛ لما وُهِب له هذا الحكم الغالي.

نكتةُ استعمالِ مفردة الهبة:

النُّـبـوَّة فيضُ فضلٍ ومحضُ هبة يهبها الله تعالى لمن يشاء

في اصطفاء مفردة الهبةِ في قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ تجرُّدٌ من الحول والقوة، ومحضُ العطاء لِفضل اللّه تعالى، ففراره ﷺ وإن كان سببًا للفرج، غير أنَّ منحَهُ الحكم والنُّبوة من اللّه تعالى

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 306.
(2) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 9.

فيضُ فضلٍ ومحضُ هبة، وهبها اللّهُ تعالى إيّاه، ففي الاعتراف بذلك هضمٌ للذات، وتبرٌّ من استيجاب استحقاق الحُكم، وعود بالفضل إلى واهبه ﷻ كما جاء في حديث سيد الاستغفار: «أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي»[1].

دلالةُ تقديمِ الجار والمجرور:

الامتنانُ الحقيقيُّ هو لله تعالى وحدَهُ، وما دونه فمجازٌ أو كذب

في تقديم الجار والمجرور ﴿لِي﴾ في جملة ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ جميلُ امتنانٍ للكريم سبحانه وتعالى، وعظيم إحساس بأفضاله، فإذا كان هناك من امتنان؛ فهو للّه الذي ربّاني، ورعاني، وصنعني، إلى ما في هذا التقديم من قَصْر القَلْب، وإرساله صريحًا بأنَّ اللّه تعالى بيده أسباب الهداية وحدَه، وأنَّه ﷺ إنَّما أوتي الهداية والحكم والنُّبوَّة بدون فرعون، وفي ذلك من طمس قدر فرعونَ أمام جلسائهِ وخلصائه ما فيه.

علَّةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبية:

هبةُ النُّبوَّة عطاء من عطاءات الربوبية

هبةُ النُّبوَّة والرسالة فيض كرمٍ واصطفاء من الربِّ الكريم، الذي يتعهَّد عبده بالتربية الروحيةِ والبدنية، ويفيض عليه من عطاءات الربوبيَّة ما يُنعم حياته بركة وسعادة؛ لذلك كان التَّعبيرُ بعنوان الربوبيَّة في قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي﴾ أنسبَ للإقرار بالهبة، وإشارة إلى أنَّ عطاءات الربوبيَّة محضُ هباتٍ يَهبها سبحانه وتعالى من يشاء.

وجهُ الإضافةِ إلى لفظ الربوبيَّة:

أهلُ الحقِّ لا يعتدّون بدعاوَى المفسدين

من مظاهر الامتنانِ، وعظيم الإحساسِ بالكرم الربّاني إضافةُ لفظ الربوبيَّة إلى ياء المتكلِّم في قوله: ﴿رَبِّي﴾، فموسى ﷺ يُعرِّض بِقصور فرعون عن درك المعالي بادِّعائه الكاذبِ باستحقاقه الربوبيَّةَ والألوهية، وأنَّه ﷺ لا يعتدُّ به ولا بدعواه الكاذبة، وذلك

(1) البخاري، صحيح البخاري، بابُ أَفْضَلِ الِاسْتِغْفارِ، الحديث رقم: (6306).

من القسوة عليه بمنزلة الذبح لغطرسته وطغيانه، وهكذا الأنبياء وأتباعهم لا يقيمون للظّالمين وزنًا.

نكتةُ استعمالِ مفردة الحُكم:

غـايـةُ الإرسـالِ نـشـرُ الحِـكـمة وبسْطُ العدل

اختُلِفَ في تعيين المقصودِ بلفظ الحكم في قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾، فقيل: النُّبوَّة، وقيل: العلم والفهم[1]، وقيل: الحكمة والعقل[2]، وجميعُ الأقوال محتملةٌ، وتسمية النُّبوَّة بالحُكم فيه بيان غاية رسالته، وهي نشرُ الحِكمة وبسْطُ العدل، وضبْطُ الموازين وفْقَ الحقِّ والصواب.

دلالةُ تنكيرِ ﴿حُكْمًا﴾:

حُـكْـمُ الـنُّـبـوَّة تُـحـيـط بـه المهابةُ وتتقدَّمُهُ الفخامة

نُكِّر لفظ ﴿حُكْمًا﴾؛ للإيحاء بأنَّه حكمٌ خاصٌّ لا يعرفه فرعونُ، وأنَّه نوعٌ جديدٌ فريد يتَّكِئ على الحقِّ، ويستند إلى الهُدى، ويَتغيّا الصوابَ الموافق للفطرة السليمة والأخلاق المستقيمة، لا حكم فرعون المبني على الجهل والاستبداد، إضافةً إلى ما يضفيه تنكير ﴿حُكْمًا﴾ عليه مِن الفخامة والمهابة والعظمة؛ لأنَّه مِن الربِّ الكريم الوهاب.

معنى الواو في الجَعل ودلالتها:

اجتماعُ الحُكمِ والرسالة الغاية في العطاء

الواو في جملة: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ واو العطف، التي جُمع بها بين عطاءين مَنحه الله تعالى إياهما أنْ وهبه الله تعالى الحُكم، وأنْ جعله من المرسلين، وبهما تَكامَل عليه التقويم الداخلي والمنحة الخارجية، فذلك أعظمُ عطاءين يجتمعان لإنسان، فوُهِب النُّبوَّة، وكُلِّف بالرِّسالة.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الجعل:

مـعـالي الأمـور من اللهِ تعالى ومـا يـأتي من دونه فهو التّافِهُ السخيف

تدلُّ مفردة الجعل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ على معنى التصيير، أي: الانتقال من حالة إلى أخرى، فما فيه ﷺ من

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 552.
(2) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1821.

خير الرِّسالة، ونيل هذه الرُّتبة العليَّةِ إنَّما هو من الله تعالى، ففيه تعريضٌ بفرعونَ؛ إذ لم يكن منه إلّا توافهُ الأمور، أمّا أمرُ الرسالة والدَّعوة والتكليف بمعالي الأمور؛ فهو من الله ربِّ العالمين، وهو عطف دالٌّ على حشد للمغيظات التي تستبين في معالمها أمام فرعون وملئه.

علَّةُ التَّعبير بصيغة الماضي في فعل الجَعل:

إذا أنعمَ الله على عبدٍ؛ فلا رادَّ لفضلِه

التَّعبير بالماضي في قوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَنِي﴾، مطَّردٌ على نسق ﴿فَوَهَبَ لِي﴾، وكلاهما يقرِّر تحقُّقَ حصولهما، ويؤكِّد نسبة وقوعهما على نبي الله الكريم موسى ﷺ وأنَّه ليس مدَّعيًا، ممّا كان ينبغي له التأثير في فرعونَ وملئه، لكن هيهات لِمن تأصَّل في الضَّلال، وتمكَّن منه الكُفر أن يتأثَّر بمثله.

نوع ﴿مِنَ﴾ ومعناها:

حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ للتبعيضِ، فهو أحد أولئك المرسلين، وأنَّه سائر على منهج الله تعالى كما ساروا.

دلالةُ استعمال مفردة الإرسال:

الرسالةُ شرفُ الرَّسول وإكرام المرسَلِ

جاء التَّعبيرُ بالإرسال في القيد ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ للتنويهِ بِشرف مهمته، والتنبيه إلى وِجهة الحُكم الذي وهبه اللهُ تعالى إيّاه، وأنَّه حكم الرسالة وحِكمة النُّبوة، المنزَّهة عن القصور، المصونة عن الاختلال، لعل ذلك يجدي مع فرعون[1].

فائدةُ إشارةِ الجمع في ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

خطابُ الخصمِ برباطة جأشٍ يُقرِّب مسافات الصِّدام

جاء التَّعبيرُ بصيغة الجمع في لفظ: ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فلم يقل: (وجعلني مرسلًا)؛ لبيان التواضع وهضم الذات، بإدخالها وشمولها ضمن المرسلين، وفيه إشارةٌ إلى وحدة الدعوة إلى الله تعالى، وأنَّ المرسلين جميعًا أولاد علّات، دينهم واحدٌ، وأمَّهاتهم شتى[2]، وهي

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 228.

(2) كما ثبت في الحديث: «والأنبياءُ إخوةٌ لِعَلّاتٍ، أُمَّهاتُهم شَتّى، ودِينُهم واحِدٌ»، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (3443)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2365).

تحمِل في طيّاتها تنبيهًا لفرعون، وتذكيرًا بِنجاة من سبق من المرسلين، وتحذيرًا بما آلت إليهم رسالاتهم من النصر على من ناوأهم، وتعريضًا ببقائها وذهابهم، وأنَّ مَن أتى على درب الحقِّ والهدى لا شكَّ منصورٌ، وأنَّ دعوته نافذةٌ ماضية بإذن الله تعالى.

نوعُ الواو ومعناها:

المستبدّون يرَون أخطاء غيرهم جرائمَ، وجرائمهم أخطاء

(الواو) في جملة ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ للاستئناف، حيث استأنف بها من الدفاع إلى الهجوم، ومن ردِّ التُّهمة إلى توجيهِ تُهَمٍ أنْكَى وأفظع، فإنْ كان موسى ﷺ قد قتل نفسًا خطأ؛ فإنَّ فرعون قد قتَّل، وذبَّح الأبناء، واستحيا النساء، واستذلَّ الرجال، وأمات فيهم معانيَ القوامة والإنسانية.

بلاغةُ الاستفهامِ في اسم الإشارة بغير أداته:

الاستفهامُ المفهوم بالنَّبر أقوى وقعًا من الاستفهام اللفظي

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ فيه استفهامٌ وتبكيت، على مذهب الأخفش، بتقدير أول الكلام همزة، أي: قبل ﴿وَتِلْكَ﴾، وأصل الكلام: (أو تلك)؟ أي: ليست هذه نعمة حتى تمنَّ بها عليَّ، وهذه الهمزة للاستفهام الإنكاري المتضمِّن معنى النفي[1]؛ لإقامة الحجة على فرعون وإفحامه بها، وإقامة الدليل على فظاعة جُرْمهِ في حق شعبٍ بأكمله، فهو سؤالٌ لا يَطلب جوابًا بِنَعَم أو لا، بل هو إلزام حُجة وفضح جُرم وتأكيد ظُلم؛ فمِن شأنه إخزاء الخَصم وكسر جبروته، وقد أتى الاستفهام بغير أداةٍ لفظيَّة ظاهرة؛ ليكون الاستفهام نبرًا مسموعًا، وهو أشدُّ وقعًا من الاستفهام الملفوظ.

ثم هو دليلٌ على قوَّة موسى ﷺ في بيان الحقِّ وإظهاره، وعدم اكتراثه بِمكانة متجبِّرٍ، يوهم الضعفاء بأنَّه إلهٌ لا يُسأل عمّا يفعل، فالكلام "خرجَ مخرج التبكيت، والتبكيت يكون باستفهام وبغير

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 517، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 63/ 7.

استفهام، والمعنى: (لو لم تَقتل بني إسرائيل؛ لربّاني أبَواي، فأيُّ نعمة لك عليَّ؟ فأنت تَمُنُّ عليَّ بما لا يجب أن تَمُنَّ به)، وقيل: معناه (كيف تَمُنُّ بالتربية، وقد أهنتَ قومي؟) ومَن أُهين قومُه؛ ذَلَّ"[1].

دلالةُ التَّعبير بالإشارة:

تعبيدُ الناس واستذلالُهم جريمةٌ توجب الذمَّ لا المدح

ترجِع الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ "إلى المصدر المفهوم من قوله: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: 18]"[2]، أي: وهل تمتنُّ عليَّ بتربيتك إيّاي، وتسمي تلك نعمة، وفي التَّعبير بهذه الإشارة التي للبعيد: (تلك) إشعارٌ ببُعدِها في باب الظُّلم، وبُعدها عن ساحة الحقِّ، وإضفاءٌ لِمعنى القُبح عليها، وأنَّها لا مكان لها بين أهلِ الحقِّ - وهم هنا موسى وأخوه هارون عليهما السلام - ولا ثالث لهما في هذا المقام.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿نِعْمَةٌ﴾:

يُؤذي المتنَّ تبكيتُه بألفاظ الامتنانِ الَّتي يَحوم حولها ويتحاشاها

من أقوى العناصر التركيبيَّةِ - كَسْرًا لفرعون في هذا الحوار - رميُهُ بمفردة ﴿نِعْمَةٌ﴾ في مقام التبكيت هذا، وهي مع صفتها ﴿تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ أشدُّ ما قَرع به موسى عليه السلام جبروت فرعون وهَيْلمانه في هذا المقام؛ ذلك أنَّ النِّعمة المباشِرة هي أقوى ما يُمكن أن يَمتنَّ بها مُنعِمٌ على فقيرِه، فكأنَّ موسى عليه السلام قد طرقَ فرعونَ بمطرقةٍ ثقيلة، وأتى عليه بالضَّربة القاضية، فتركه حيران، لا يجد بُدًّا من التحوُّل بالحوار عن هذا الطريق المسدود إلى طريق آخر يمكن أن يجاريَه فيه، فتحول مجبَرًا إلى أحلى المُرَّيْن، وهو المحاورة حول ما يتعلَّق بأخبار ربِّ موسى وهارون الذي أرسلهما: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكميَّة:

كشْفُ الحقائق بالبيان الصّادق من أشدِّ ما يؤلم المفتري الكاذب

استُعْمِلَت مفردة الامتنان هنا، والامتنان يكون بنعمة حقيقية خالية من الأذى، ويكون المُمْتَنُّ قد أولاها فقيرَهُ الآخذ، والواقع هنا

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 96.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 148.

عكس ذلك؛ إذ لم يولِ فرعونُ بني إسرائيل نعمةً؛ ليمتنَّ بها على موسى ﷺ بل المنَّةُ لبني إسرائيل على فرعون؛ لأنَّهم خُدّامه وزارعو أرضه وحالبو ضَرْعه، وهو الذي يقابل تلك المِنَنَ - منهم عليه - بالنُّكران والتعبيد والقهر والإذلال، ففي مفردة ﴿نِعْمَةٌ﴾ و(مِنَّة) إذًا استعارتان تَهكُّميَّتان لاذِعتان، مؤلمتان أشدَّ الإيلام، بما فيهما من استهزاء بالمخاطَب، المرادُ به التوبيخُ؛ لما فيهما من كشف الكذب، وبيان البهتان، ورفض الاستخفاف.

نكتةُ تنكيرِ مفردة ﴿نِعْمَةٌ﴾:

الملوكُ هي التي تولي النِّعَم، والمِنَّةُ عليهم من أتباعهم عارٌ وشَنار

نُكِّرت لفظة ﴿نِعْمَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ لمزيد الإهانة؛ إذ إنَّ تنكيرها يُهَوِّلُ من شأنها، ويُعظِّم قدرها، مع أنَّها افتراضية تهكُّمية غير موجودة، فتلك مفارَقة تزيد فرعون إيلامًا، وتَصبُّ عليه الصَّغار صَبًّا، وهو الذي يزعم لنفسِه الربوبية والألوهية، وليس الملك عليهم فحسبُ، ومع ذلك يتخذ من ذلك مِنَّة يمتنُّ بها عليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع في الامتنان:

استحضارُ الظُّلمِ في مقام التبكيت إنكارٌ لدعوى الخصم

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع: ﴿تَمُنُّهَا﴾؛ لزيادة التبكيت والتشنيع على فرعون، ولتزيد المقامَ على فرعون التهابًا وتأجُّجًا؛ لأنَّها تستحضر الجرائم، وتفضح الظُّلم، وتَعرض امتنان فرعون على موسى ﷺ في معرض التجدُّدِ الماثلِ المقيت، والاستمرار الحاضر المخزي.

معنى حرفِ الاستعلاء (على):

كلُّ محبٍّ مخلص لأهله يؤذيه ما يُؤْذيهم

دلَّ حرفُ الاستعلاء (على) في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ على الاستنكار الصّادر عن موسى ﷺ، فإنَّ امتنان فرعون كان على موسى ﷺ على وجه الخصوص، فإيرادُ حرف الاستعلاء بهذا الاعتبار يزيدُ من استنكاره، وليكون كذلك مقدِّمةً لبقيَّة الجملة وهو ذكره لقومِه، فإنَّ المنَّة المبنيَّةَ على استعباد قوم المنون عليه ليست بمنَّةٍ.

نوع ﴿أَنْ﴾ ودلالتها:

التَّعبيرُ بالجملة المصدريَّة يتيح دلالاتٍ لا يتيحها المصدر الصريح

﴿أَنْ﴾ في جملة ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ مصدريَّةٌ، وتقدير الكلام بعد سبكها مع ما بعدها في مصدر: (هل تَعُدُّ تعبيدَك بني إسرائيل وقهرَهم وإذلالهم مِنَّةً تَمتنُّ بها ﴿عَلَيَّ﴾؟) فالتَّعبير بالجملة المصدرية يتيح من الدلالات والإشارات ما لا يتيحه المصدر الصَّريح، ومن المقرَّر أنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى، ويجوز أن يكون ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب، والمعنى: إنَّما صارت نعمةً ﴿عَلَيَّ﴾؛ لأنَّكَ عبَّدت بني إسرائيل، أي: لو لم تفعل ذلك؛ لَكَفَلَني أهلي، ولم يُلْقوني في اليمِّ[1].

وعلى كلٍّ ففي هذه العبارة نقضٌ لامتنان فرعونَ بقلب النِّعمة نقمةً بتذكيره أنَّ نعمةَ تربيته ما كانت إلّا بسبب إذلالِه بني إسرائيل، وفيه أنَّ الإحسانَ إليه مع الإساءة إلى قومِه لا يزيد إحسانًا ولا منَّة[2].

لطافةُ التعبيرِ بتعبيد بني إسرائيل:

الإيماءُ إلى أنَّ التَّعبيدَ لا يكون إلّا للهِ، وما كان لغيرِه فباطلٌ

جاء التَّعبيرُ بالتعبيد في قوله تعالى: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون ذكرِ الإذلال أو الإهانة؛ لأنَّ التعبيد يعني: الحبس والإذلال، أو الاسترقاق؛ سُمّي بذلك لما فيه من الإذلال، مأخوذ من قولهم طريق معبَّد[3]، والعَبْدُ: هو المملوك، والجماعة العبيدُ، وهم العباد، إلّا أن عامَّة أهل العربيَّة اجتمعوا على التَّفرقة ما بين: عباد الله، والعبيد المملوكين، يقال: هذا عبدٌ بيِّنُ العُبودَة، ولم نسمعهم يشتقّوا منه فعلًا، ولو اشتُقَّ؛ لقيل: (عَبُدَ)، أي: صار عبدًا، وأقَرَّ بالعُبودية، ولكنَّه أُميتَ الفِعْلُ، فلم يستعمل، وأمّا عَبَدَ يَعْبُدُ عبادةً؛ فلا يقال إلّا لمن يعبد الله تعالى[4]، وتعبيدُ الإنسان للإنسان ذُلٌّ، يأباه الله

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 306.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 115.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 168.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).

تعالى لعباده، وتأباه النُّفوس القويمة، وإنَّما تكون العبوديَّة شرفًا؛ إذا كانت لله سبحانه وتعالى؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالتَّعبيد جامعًا للذل النفسيِّ والجسدي والفكري، مع الإشارة إلى أنَّ هذا التعبيدَ لا يكون إلّا لله تعالى.

نكتةُ التَّصريح ببني إسرائيل بعنوان النَّسب:

في ذِكْـرِ القوم مضافين إلى نبيِّهم شرفٌ لهم، وإيجاب لإكرامهم

عرَّف موسى قومَهُ حين استدعى المقامُ ذِكرَهم أمام فرعون بـ ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ دون التَّعريف بالإضافةِ (قومي)؛ وذلك للتَّنويه بِشرفهم حينئذٍ؛ فَهُم من سلالة نبيِّ الله تعالى يعقوب عليه السلام وتلك مكرمة تَستوجب إكرامهم وتكريمَهم لا إذلالهم وتعبيدهم، وإلّا لكان تعريفهم بالإضافة (قومي) أوفَى بِحقِّ العصبَةِ، وأنسب وجهًا للدِّفاع عنهم؛ لو كان الأمر في غير نبوَّة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفعل والعمل:

الفعل أعمُّ من العمل ويكثر في سجايا الإنسان

العمل إيجادُ الأثر في الشَّيءِ، يقال: فلانٌ يعمل الطين خزفًا، والأديم سِقاء، ولا يُقال: يفعل ذلك، فالفعل عبارة عمّا وُجد في حالٍ كان قبلها مقدورًا سواء كان عن سببٍ أم لا، وقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: 96]، أي: خلَقكم وخلَق ما تُؤثرون فيه بِنَحْتِكُم إياه أو صَوْغِكم له، وأصل العمل في اللُّغة الدُّؤوب، ومنه سُمّيَتِ الراحلة يَعْمَلَة[1]، وهي من الإبِل: البَعيرُ القوي على الأَسْفار والأحمال، والذَّكرُ والأُنْثَى فيه سَواء، والهاء فيها للمُبالَغَة، وهي الَّتي يختارها الرجل لمركبه ورَحْله؛ للنَّجابة وتَمام الخِلقَة وحسن المنظر، فَإذا كانَت في جماعَة الإبِل؛ عُرِفت[2]، والفعل أعمُّ من العمل، ويكون في السُّلوك المختار، وفي الأفعال التي هي سجايا الإنسان.

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 377.
(2) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري: 21/ 310.

الخوف والخشية:

الخشيةُ أعظمُ من الخوف، والدليل على ذلك قولُه تعالى يصف المؤمنين: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21]؛ "حيث ذكر الخشية في جانبه سبحانه والخوف في جانب الحساب"[1]، و"الخوف فراغُ باطنٍ قريبٌ من الرُّعْب والفَرَق، أمّا الخشية؛ ففيها استشعار النفس حِدَّة تقع لا مَهرَبَ منها؛ إذا اسْتوجِبَتْ، وفيها – مع ذلك – استيحاشٌ وجَفْوةٌ وخُشونة قد يعبِّر عنها التوتُّرُ الحادُّ"[2].

الخوف عامٌّ فيهما، والخشيةُ خوفٌ مخصوص

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 217.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (خش).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والثلاثون،
سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 38 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-80-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 38 : المجلد الثامن والثلاثون، سورة الفُرقَان من الآية 43 إلى سورة الشُّعَراء الآية 95.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-80-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5248773 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»